القدّيس يوسف البتول

قدوة في الإيمان بالله ومثال في حبّه للعائلة

الأب ايوب شهوان ر.ل.م

يوفّر لنا التفكيرُ في حياةِ القدّيسِ يوسفَ، والتأمّلُ الهادئُ والخاشعُ فيها، مدًى روحيًّا ذا ثمارٍ طيّبةٍ تنمي فينا الشوقَ إلى الاقتداءِ برجلِ الإيمانِ هذا، حارسِ العائلةِ المقدّسة، ومدبّرِها، والساهرِ عليها بحبٍّ كبير، الذي أدرك عظَمَ الطاعةِ لله، فتمّم كلَّ ما أُمِرَ به وَفقَ ما كانَ يتلقّاه في الحلمِ من إيحاءٍ وتوجيه عَبْرَ الملاك جبرائيل، لذلك عظّمَهُ اللهُ جدًّا، فإذا به ميراثٌ روحيٌّ يزيّن مسيرتَنا بأجملِ الفضائل وأسماها. من خلال هذا الوجه المميّز يتبدّى لنا عملُ اللهِ الخلاصيّ بالابن الحبيب يسوع الذي أوكل اللهُ رعايتَه، مع أمّه القدّيسة مريم، إلى قلب القدّيس يوسف وعنايتِه.

لم يَنسُبِ الإنجيلان بحسب متّى ولوقا أيّةَ كلمةٍ إلى القدّيس يوسف، لا بل يبدو أبدًا في حالةِ صمتٍ ملفتٍ وذي مدلولٍ، لأنّه أدرك في العمق أنّ اللهَ قد أدخلَه في مخطّطه الخلاصيّ، إلى جانبِ خطّيبته القدّيسةِ مريم، فازداد سموًّا في الإيمانِ المتجذّرِ في المعرفة، وارتقاءً في الحكمة المتأصّلة في مخافة الله، متقبّلاً بفرحٍ نعمةَ الله الفريدة هذه، ومُسلمًا ذاتَه لله تسليمَ البارِّ النبيهِ والمنوَّر، لذلك قَبِلَ أن يساهمَ في تتميم مشيئته القدّوسة، حسبما كان يرسُمُه له الملاكُ، وكدتُ أقولُ حسبما كانتْ علاقتُه بالله وروحانيّتُه تُلهمانه، وكلُّ ذلك بإصغاءِ الخاشعِ في حضرةِ تجلٍّ وصوت إلهيَّين، فعلاً فعلَهما في قلبه وفي ذهنه، فكانَ اله هديًا ونورًا في كلِّ ما سيفعل.

نحن إذًا أمامَ وجه ذي امتدادات روحيّة باتّجاهِ الساكنِ في الأعالي والساهر أبدًا علينا، وامتدادات أفقيّةٍ باتجاهِ مريمَ الأمِّ القدّيسة، وباتّجاهِ الابنِ الحبيبِ يسوع، ومن بَعْدُ باتّجاهنا نحن أيضًا المؤمنين والمؤمنات. هذا ما دفعَ عددًا من آباء الكنيسة إلى أن يضعوا الكتابات الرائعة عنه، كالذهبيّ الفم وغيره، وعددًا من الباباوات مثل لاوون الثالث عشر، ويوحنّا الثالث والعشرون، وبولس السادس، ويوحنّا بولس الثاني، إلى أن يحرّروا تعاليم قيّمة عنه. من خلال هذه الكتابات وتقاليد الكنيسة لا بدّ وأن ترتسم في ذهننا الصورةُ الحقيقيّةُ والراسخةُ عن هذا الرجل القدّيس، الزوجِ والأبِ والمعيلِ والمربّي؛ فمن خطبتهِ لمريم في الناصرة، إلى أخذها إلى بيته، وتساكنهما، وحبلِها، فإلى اكتتابهما في بيت لحم حيث ولدتْ ابنَها يسوع، وأعطاه هو اسمًا، ثمّ هرب العائلة إلى مصر، وانتظارهما هناك حتّى زوال الخطر عن الطفل يسوع، ثمّ العودة إلى الناصرة والإقامة فيها، مسيرةٌ واكبَها الألم وأثقلتها الصعاب، لكنّ دخول يوسف في سرّ الله وفي عمله الخلاصيّ، جعلَ من المهمّةِ النبيلة علّةَ فرحٍ عظيمٍ، وسلامٍ ولا أوفر. لأجل ذلك كلّه سيُضحي القدّيس يوسف خاتمةَ مختاريّ الله الذين وَكَلَ إليهم مهمّاتٍ خاصّةً في العهد القديم، والوجهَ المطلَّ بقداستهِ مع انطلاقة العهد الجديد.

لقد فهم يوسف، بفضل محبّته الشديدةِ لله، وترائي الملاك له، وعمقِ إيمانه، معنى أمومة مريم ليسوع، مع أنّ هذا الأمر كان يفوق إدراك عقله، لذا قبلها في قلبه وفي خاصّته، كما سيفعل أيضًا كلُّ تلميذٍ طاهرٍ يعترف بيسوع ربًّا ويقبله في خاصّته.

كلّ الأحداث غير العادية التي جرت بعد ذلك أمام ناظرَي القدّيس يوسف، أفهمته وجعلته يدرك أنّه أمام حالة غيرِ عاديّة، أمام حدث إلهيّ لا مثيل له، ولا عجب في ذلك، لأنّ الكلمة صار جسدًا وحلّ بيننا! لقد اكتشف

يوسف شيئًا فشيئًا الدورَ الموكَلَ إليه، فإذا بمسيرته كلّها مسيرةُ اكتشاف، هو اكتشافُ المتتلمذ لملكوت الله. ولا عجب أيضًا إذا رأينا يوسف يواجه الصعوبات في تسليمٍ مطلقٍ لله، هو الساهر عليه وعلى مريم وعلى الطفل. من هنا ضرورة إدراكنا أنّ عقل الإنسان وحده لن يأتي بالحلول والمخارج للأزمات والصعاب، وأنّ الله، بواسطة روحه القدّوس، أو عبرَ ملاكه، هو مصدر كلِّ فكرٍ صالحٍ ورأيٍ سليم وقرارٍ صائب. وإذا كان أصفياؤه وأحبّاؤه القدّيسون والقدّيسات قد نجحوا في خياراتهم ومواقفهم وفي ما أنجزوه، فلأنّ الله كان أبدًا مرجعَهم ومحورَ تفكيرهم. وإذا كنّا نتكلّم بانبساط على فضائل القدّيس يوسف السامية، وقدوتِه الحسنة، ومثالِه البنّاء، فلأنّ الله قد عظّمه جدًّا، فأضحى من خلال علاقته مع الله ومع مريم امرأته، ومع الابن الحبيب يسوع، أي مع أسرته، نموذجًا رفيعًا وجذّابًا لكلّ ربّ عائلة، لا بل لكلّ عائلة تؤمن بالله وبابنه يسوع المسيح وبروحه القدّوس.

لتفرح العائلات بوجود القدّيس يوسف في الكنيسة معلّمًا مثاليًّا لها، بالتالي فلتتعلّم منه كلّ ما أوردناه أعلاه عنه لترتقي يومًا بعد يوم وبشكل متواصل مِثْلَه في سلّم التقرّب من الله، وهذا يتحقّق بنجاح إذا مارستِ السجودَ والتأمّلَ والعبادةَ والصلاةَ على مثاله، وكلُّ ذلك لكي تتمكّن من أن تلعب الدور العائليّ السليم والصالح لخيرها وخير البشريّة، ولمجد الله الأعظم.